مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.
ص ص 779 - 802.

العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس

بوزيد باعه صليحة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بجاية
bouzidbaasaliha@gmail.com

تاريخ الإرسال: 14/ 07/ 2020؛ تاريخ القبول: 17/ 01 / 2023

The relationship between language and thought in a psychology perspective

Abstract: The question of the relationship between language and thought has attracted the attention of many researchers in the field of psychology. Some researchers who agree that the role of language in this relationship is preliminary, others attribute an essential role to thought in this relationship.

This article aims to address the problematic of the relationship between language and thought from the perspective of psychology by presenting and discussing the conceptions of the pioneers of psychology who dealt with this question, in particular Piaget and Vigotsky, who provided it. a precise and rich analysis.

Keywords: Language; thought; linguistic behaviors; cognitive processes; Piaget; Vygotsky.

الملخص:

جلبت مسألة العلاقة بين اللغة والفكر اهتمام العديد من الباحثين في ميدان علم النفس. فبينما يتفق البعض في كون دور اللغة في هذه العلاقة أولي، إلا أن البعض الآخر من الباحثين يعتقد أن للفكر الدور الأساسي. من هذا المنطلق صمم مقالنا هذا الذي يسعى إلى تناول إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس من خلال تقديم

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.

ص ص 779 - 802.

ومناقشة تصورات رواد علم النفس الذين تطرقوا لهذه المسألة، خصوصا بياجي و فيكوتسكي اللذين قدما تحليلا دقيقا وثريا لها.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الفكر؛ السلوكات اللغوية؛ السيرورات المعرفية؛ بياجي؛ فيكوتسكي.

مقدمة:

تعتبر إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر من أكثر الإشكاليات تعقيدا في البحوث النفسية واللغوية، إذ يتعلق الفكر بالسيرورات العقلية مثل حل المشكلات، التخمين، الاستدلال،الإبداع، التذكر، التصنيف، التصميم أو التخطيط، بينما تمثل النشاطات اللغوية في نفس الوقت موضوعا ووسيلة للمعرفة،فاللغة ذات علاقة وطيدة بالميكانزمات المعرفية و تتأثر اللغة بمختلف السلوكات الأخرى غير اللغوية و التي توصف بشكل عام بالنشاط الفكري، الإجرائي، الإدراكي، الحركي والتذكري. وقد تتفاعل اللغة أيضاً مع مختلف هذه النشاطات، ويكون بين هذه النشاطات وبين اللغة تأثير متبادل (Bronckart J. p.,1977: 10)

كما تشكل اللغة أحد المؤشرات الهامة للتنظيم التصوري و أحد الاتجاهات التي تسمح بالتعرف على النظريات الساذجة، تلك النظريات التي يُتوقّع أن تقود إلى تكوين المفاهيم. كما يسمح الربط المنتظم بين الجانب المعرفي و تعبيره اللغوي بإغناء معرفتنا للبنية و السيرورات المعرفية وكذا لمعرفة ميكانزمات النمو المعرفي. (Cordier F., 1994: 5-6)

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.

ص ص 779 - 802.

ويشكل مفهوما اللغة والمعرفة بناءين نظريين ذوَيْ قيمة براغماتية قبل كل شيء، وتبعاً للمدرسة أو الإطار النظري النفسي، الإبستيمولوجي واللغوي الذي تطرح فيه مشكلة العلاقة بينهما،فهما يغطيان وقائع و حقائق سلوكية متغيرة جداً وحتى متناقضة في بعض الأحيان. (Bronckart J. p.,1977: 54)

وتعتبر مسألة العلاقة بين اللغة والفكر مسألة معقدة وغامضة، وقد تم طرحها من طرف العديد من الباحثين من مختلفا hالتخصصات، ابتداءً بالفلاسفة ثم اللسانيين وعلماء النفس.

فلقد اهتم علم النفس الحديث منذ نشأته بمشكلة العلاقات بين اللغة والفكر، مثلما اهتم بمختلف المسائل التي طرحتها الفلسفة. ولكن يبقى هذا الميدان صعب التحليل بشكل تجريبي، لأن التفكير واللغة من السلوكات الإنسانية التي من الصعب التفريق بينهما، أو عزلهما الو احد عن الآخر (.Bronckart J.P, 1975: 137)

ونظراً لهذه الصعوبات المنهجية فقد طُوّرت نظريات وتصورات حول هذه المسألة سنعرض في مقالنا هذا ملخصا لبعض منها ونعطي حيزا أكبر لتصور كل من بياجي و فيكوتسكي اللذين اقترحا،كل واحد من وجهته، تصورات رائدة في علم النفس وكان اهتمامهما بهذه المسألة هاماً و كبيراً.

تصور الباحث واندت(1832-1920) Wundt

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.
ص ص 779 - 802.

حاول الباحث في علم النفس واندت وصف التفاعلات بين الظواهر الخارجية لإنتاج وإدراك الأصوات، والسيرورات الداخلية أو " الفكر"، وخلص إلى أن كل عمل لغوي يبدأ على شكل انطباع أو شعور عام، ثم يجب على المفحوص عزل بعض جوانب هذا الانطباع العام، خصوصاً العلاقات التي بين الوحدات التصورية.وهذه العلاقات هي التي تشكل الحبكة البنيوية للغة.

وقد لقي هذا الموقف للباحث واندت انتقادات عديدة من طرف أتباع المدرسة الوظيفية، من بينهم الباحث بوهلر Buhlerالذي يحاول شرح السلوكات اللغوية بالاعتماد على الرجوع إلى الأحداث الخارجية، وليس باستدعاء أو التماس السيرورات العقلية، أما الباحثون السلوكيون فكان موقفهم أكثر تشدداً .(Bronckart, J.P., 1977: 15)

التصور السلوكي:

لقد لجأ علماء النفس السلوكيون إلى الطريقة التجريبية من أجل توضيح العلاقات بين النشاطات اللغوية من جهة، والنجاحات التذكرية الإدراكية أو الفكرية من جهة أخرى. ويبقى من الصعب الخروج بمعان لهذه الدراسات في غياب أسس نظرية دقيقة .وبشكل عام، فإن السلوكيين يرفضون اعتبار اللغة تعبيراً عن معرفة داخلية، كما أنهم يُبعِدون المصطلحات اللغوية مثل: إشارة، رموز أو معنى، لأنها ترجع إلى نشاط عقلي، ويحصرون تحليلاتهم في المُحدِّدات الوظيفية للسلوك اللفظي(Bronckart,J.P., 1977:16)

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ويشترط المدافعون عن هذا الموقف أن يتم تحليل اللغة على أنها سلوك محضإذتمثل اللغة بالنسبة إليهم مجموع الإجابات اللفظية التي يمكن تصنيفها تبعا لطبيعة المؤثرات أو المنبهات التي تسهل ظهورها. كما يعتبر هؤلاء التفكير بأنه مجموع الاستجابات الصوتية الضمنية، وهي تشكل درجة معينة من استبطان اللغة. أما السلوكيون الجدد أمثال هول (Hull)واوسقود ((Osgood، فقد غيروا من هذا الموقف بإدخال بناءات فرضية ذات طبيعة إجرائية بحتة، والتي تمثل حافزاً لسيرورات التفكير .(Bronckart, J.P, 1975: 138)

تصور بياجي (1896-1980) Piaget

يعتبر بياجي من علماء النفس الذين تطرقوا باهتمام إلى هذه المسألة الشائكة والعسيرة حول العلاقة بين اللغة والفكر في العديد من كتبه وفي إنتاجاته العلمية. وقد أثّرت دراساته في عهد كامل من تطور النظرية حول اللغة والفكر لدى الطفل وكذلك منطق الطفل وتصوره للعالم. كما كان لهذه الدراسات أهمية تاريخية كبيرة.

والمشكلة التي يطرحها نمو اللغة لدى بياجي تتعلق بعلاقات هذا النمو مع الفكر، ومع الإجراءات المنطقية بالخصوص، لأنه إذا كان من المتفق عليه أن اللغة تزيد من قدرات التفكير توسعاً وسرعة، إلا أن مسألة الطبيعة المنطقية الرياضية تبقى مجالاً للنقاش (Piaget. et Inhelder,B., 1993 : 68)

وفي مقارنته بين التصرفات اللفظية من جهة، وبين التصرفات الحسية الحركية من جهة أخرى، يستخرج بياجي فروقاً هامة في صالح التصرفات الأولى نلخصها فيما يلي:

-يتم التحكم في التصرفات الحسية الحركية باتباع الأحداث، دون التمكن من تجاوز سرعة العمل أو النشاط، بينما تتمكن التصرفات اللفظية من إدخال أو إدماج روابط بسرعة أكبر بفضل الرواية ومختلف أنواع الاستحضار أو الاستدعاء.

- تكون التكيفات الحسية الحركية محدودة بالمسافة والزمن القريبين، بينما تسمح اللغة للتفكير بأن يتعلق بمسافات وأزمنة أوسع ويتحرر بذلك مما هو حالي أو مباشر.

- وكنتيجة للفرقين السابقين، فإن الذكاء الحسي الحركي يعمل على مستوى أفعال متتابعة، بينما يتمكن الفكر خصوصاً بفضل اللغة من تمثيل مجموعة متزامنة.

ويذكرنا بياجي بعد ذلك أن هذا التطور الذي يحققه التفكير التمثيلي، مقارنة بنظام المخططات الحسية الحركية، يعود في الواقع إلى الوظيفة الرمزية في مجملها، فهي التي تفصل التفكير عن الفعل وتخلق بذلك التمثيل.

إلا أن الباحث يعترف بأن للغة دوراً هاماً لأنها على عكس الأدوات السيميائية الأخرى التي يبنيها الفرد تبعاً لاحتياجاته، فإن اللغة أداة جاهزة تمّ إعدادها اجتماعياً وتحتوي على أدوات معرفية تكون تحت

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

تصرف الفكر، إذ يستعملها الأفراد الذين يتعلمونها قبل أن يشاركوا هم أيضاً بدورهم في إغنائها .(Piaget. et Inhelder,B., 1993 :68)

ويتضح من خلال ما سبق أن اللغة في منظور الباحث هي أحد مظاهر النشاط التمثيلي عند الطفل والتي تظهر خلال السنة الثانية من عمره. لكن يبقى المحرك الأساسي للنمو في هذا المنظور هي الميكانزمات المعرفية العامة، كالاستيعاب، الملائمة، التعميم، التجريد وغيرها (Bronckart, J.P.,1975, p.138)

وقد حاول بياجي في كتبه الأولى "الحكم والاستدلال عند الطفل (1924)"، و"تمثيل العالم عند الطفل (1926)"، صياغة تحليل لميكانزمات الفكر عند الطفل.

ويظهر من خلال هذا التحليل الأول أن بياجي يعترف بأن اللغة تمثل المؤشر المثالي للفكر، وبأن بعض البنيات مثل توظيف الملفوظات، تترجم بشكل مباشر ميكانيزمات الذكاء :(Piaget, J.,1966, dans: Bronckart J.P., 1977: 45).

وقد قام بياجي بملاحظات ميدانية خصت مجموعات أطفال من الحضانة، سمحت له بأن يخلص إلى أن معظم ملفوظات المفحوصين الصغار يتم بثها في غياب محادث، وهي تمثل بذلك مناجاة أو حتى تعقيبات لفظية ترافق العمل أو اللعب. .ويطلق بياجي على هذا الإنتاج اللفظي اسم اللغة الأنوية .(Bronckart, J.P., 1977:45)

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ويعرّف بياجي اللغة الأنوية بأنها "*تلك اللغة التي يتحدث فيها الطفل عن نفسه فقط، ولا يحاول أن يضع نفسه محل المحادث، أو يتوضع في وجهة نظر المحادث ...فالطفل يتحدث لنفسه وكأنه يفكر بصوت عال، فهو لا يتخاطب مع أحد*" (Piaget,J.,1923, dans: Vygotsky., 1997: 89-90).

ويرى بياجي أيضاً أن هناك ثلاث فئات من اللغة الأنوية : التكرارات الترادية، المناجاة، والمناجاة المشتركة .وتمثل التكرارات الترادية بقايا مرحلة المناغاة.فالطفل «*يكرررغبة في الكلام دون الاهتمام بالتخاطب مع أحد، ودون نطق كلمات ذات معنى في بعض الأحيان*» (Piaget,J., 1923, dans: Bronckart,J.P., 1977: 45).

كما ترافق المناجاة الفعل من أجل تعزيزه، أو حتى لتحل محله، أما المناجاة المشتركة، فهي تمثل وضعيات أو حالات تنتج خلالها النشاطات اللفظية معاً من طرف مجموعة من الأطفال الذين يظهرون للوهلة الأولى وكأنهم يتحدثون معاً، ولكن في الواقع هم لا يهتمون بتاتاً إذا استمع إليهم أو فُهِم ما قالوه.

وفي اعتقاد بياجي، فإن هذه اللغة الأنوية لا تشغل أية وظيفة مفيدة أو ضرورية لسلوك الطفل، فهي لغة تحقق قبل كل شيء الإشباع والرضا والمتعة لدى الطفل، وإن لم توجد، فذلك لن يغيّر شيئاً في النشاط الطفولة .

ويضيف أن هذه اللغة تمثل نوعاً من الحلم اللفظي للطفل، وهي إنتاج من نفسيته أقرب إلى منطق الحلم وحلم اليقظة منه إلى منطق التفكير الواقعي.وهذه اللغة تضعف وتتناقص لتختفي نحو سن المدرسة (7-8) سنوات(، حيث يصبح معامل اللغة الأنوية قريباً من الصفر (Vygotsky,L., 1997, pp. 94 -95).

كما يوضح بياجي أن اللغة الأنوية لغة داخلية في وظيفتها النفسية ولغة خارجية في طبيعتها الفيزيولوجية. و تقابل اللغة الأنوية بأشكالها الثلاثة اللغة المجتمعية التي تعتبر خاصية للتوظيف الراشد، والتي تهدف إلى توفير معلومة دقيقة نسبياً للمحادث مع الأخذ بعين الاعتبار للسياق .(Bronckart, J.P., 1977: 45)

ويلمح الباحث فيكوتسكي إلى أن الفضل الكبير يعود إلى بياجي الذي استخرج ووصف اللغة الأنوية مستعملاً في ذلك طريقة إكلينيكية دقيقة .وبالنسبة لبياجي دائماً، فإن اللغة الأنوية هي الدليل المباشر الأساسي والأول عن التفكير الأنوي الذي هو شكل من أشكال التفكير العابر، يقع من وجهة نظر جينيتيكية، وظيفية وبنيوية، كوسيط بين الفكر الانطوائي والفكر الذكي الموجه.

بذلك فاللغة الأنوية تمثل مرحلة انتقالية وحلقة جينيتيكية ضمن سلسلة للربط وتشكيلة وسيطية في تاريخ نمو الفكر (Vygotsky,L., 1997: 72-73).

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.
ص ص 779 - 802.

وبعد التحاليل العميقة التي أجراها بياجي على تطور اللغة والفكر الأنويين لدى الطفل، يخلص في كتابه حول اللغة والفكر، إلى فكرة هامة في نظريته والتي تقول بأن اللغة ليست هي التي ترسخ بنية الفكر والتي تعطي شكله للمنطق، إنما العكس هو الصحيح، فالمنطق هو الذي يقود اللغة.(Bronckart, J.P., 1977: 46 - 47)

وضمن دراسة نشرت عام 1954، وأعيد تناولها في نص عام 1964، تناول بياجي موضوع اللغة والفكر لذاته .ويتضح موقفه من هذه المسألة في الصفحات الأخيرة لهذا النص، حيث يقول:

﴿*إن اللغة هي ...شرط ضروري ولكن ليس كافياً لأجل بناء الإجراءات المنطقية*﴾. ولكنه يعترف أيضاً أنه﴿*كلما كانت بُنى التفكير دقيقة، كانت اللغة ضرورية لإتمام إرصانها.*﴾.« ويعترف بياجي بذلك بأن تدخل اللغة ضروري﴿*لأنه من دون نظام التعبير الرمزي الذي تشكله اللغة، تبقى الإجراءات(العمليات)في حالة أفعال متتالية دون أن تندمج في أنظمة متزامنة.*فضلاً عن أنهاتظل *فردية وتتجاهل بالتالي هذا الضبط الذي ينتج عن التبادل الفردي المشترك والتعاون*﴾(بياجي ذكر من طرف أوليرون،2005: 276 -277).

حتى وإن اعترف بياجي بوجود تأثير دائري متبادل بين اللغة والتفكير، فهو يصر على أسبقية الذكاء على اللغة وعلى استقلاليته عنها.وللبرهنة على هذا التأكيد، يقدم بياجي مجموعة من الحجج نلخصها فيما يلي:

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.

ص ص 779 - 802.

1- مصدر العمليات المنطقية سابق لنمو اللغة، حيث يكون الطفل خلال المرحلة الحسية الحركية، أي قبل ظهور اللغة، قادراً على إجراء تعميمات تشكل التصنيفات الأولى له.

كما يحدث خلال هذه الفترة تنسيق بين المخططات، هذه التنسيقات تكوّن حسب بياجي المنطق الحسي الحركي (Moreau, M.et Richelle M., 1997: 173-174).

ويؤكد بياجي أن العمليات المعرفية تُشرح من خلال التطبيق التكراري للميكانزمات العقلية المستقلة عن اللغة، كونها تسبق ظهور اللغة، حيث تمتد البُنى المميزة للتفكير بجذورها إلى الفعل وفي الميكانزمات الحسية الحركية .(Piaget, 1964, dans: Bronckart, 1977: 61)

ويخلص إلى أن الطفل قادر على بناء بنياته المنطقية بالاستعانة بمنطق العمليات أو الأفعال على مستوى النمو الحسي الحركي في غياب اللغة . وتنشأ استناداً إلى هذا المنطق فيما بعد العمليات اللاحقة للتفكير .وبذلك لا تجد اللغة مكاناً لها في هذا المضمار .(Tourette G., 1980:167)

ويشير الباحث بعد ذلك إلى الأثر المتأخر للغة وإلى غياب إثر مباشر لها على العمليات المعرفية.

ويبين باحثون آخرون إلى أنه إذا وجد فرق زمني ظاهر بين اللغة والمنطق، فإن ذلك يعود إلى كون بياجي يرفض أن يكون للغة هذا البعد الجينيتيكي الذي يجعلها أساسية للنمو المعرفي .وحتى وإن تم إعداد اللغة اجتماعيا، فلا يمكن اعتبارها مكونة أيضاً نفسياً ولا يجب أن نؤكد أن

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: العلاقة بين اللغة والفكر في منظور علم النفس.
ص ص 779 - 802.

الطفل "يملك اللغة "إلا عندما يمتلك كل الموارد التعبيرية والمنطقية، وحتى يكون قادراً على استعمالها بشكل تلقائي في إنتاجاته اللفظية (Mottet G.,1976: 39).

2- تظهر الوظيفة الرمزية قبل اللغة التي تستند عليها، وحتى وإن كانت اللغة بصدد التكوين خلال المرحلة التي نلاحظ فيها مظاهر للتقليد المؤجل واللعب الرمزي فهي لا تشكل بالنسبة لبياجي مصدرا لمظاهر النشاط الرمزي.ويفضل بياجي بوضوحٍ الجانب التمثيلي للغة عن جانبها المجتمعي، حيث يؤكد على الاستمرارية التي تربط المظاهر الرمزية الأولية بالكلمات الأولى .(Moreau et Richelle, 1997: 174-175)

وبخصوص الكلمات الأولى، يؤكد بياجي أنه خلال كل مرحلة الطفولة الأولى، تكون الوظيفة الوحيدة للكلمات هي مرافقة المحاولات المادية للذكاء الحسي الحركي.(Tabouret- Keller A., 2000: 24)

ويعتبر بياجي أن اللغة ليست إلا ظاهرة سيميائية ضمن ظواهر أخرى، وهي بذلك أحد أوجه أو أشكال الذكاء في توظيفه العام، والتقدم الذي يحققه التفكير يعود إلى الوظيفة السيميائية في مجملها وليس فقط إلى استعمال اللسان.كما أن التعلم اللفظي يخضع لإيقاع التطور المعرفي،والذكاء عامل هام في النمو اللغوي لأن اكتساب اللغة يتطلب سياقاً معرفياً معيّناً .(Mottet G., 1975-1976: 42- 43)

وتظهر اللغة لدى الطفل كنظام سابق البناء ولا يمكن إدماجه، إلا إذا كان بحوزته البنيات المعرفية الضرورية، لهذا السبب يخضع تعلم اللغة إلى

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

إيقاع التطور المعرفي .ذلك ما أكدته أيضاً دراسات عديدة للباحثين سانكلير Sinclair (1967)وفيفريو Fevreiro (1971) اللذين بيّنا ضرورة تمكّن الطفل من بعض البنيات المعرفية كي يتحكم في البنيات اللغوية المقابلة .(Tourette G, 1980: 168)

ولكن يشير باحثون آخرون إلى أن اعتبار الوظيفة الرمزية المصدر الوحيد للغة، يعني أننا ننسى أن اللغة ليست فقط أداة منطقية ووسيلة للتمثيل، ونهمل بذلك كونها تسمح بالتفاعل مع المحيط .وهذا الاستعمال للغة في التفاعل لا يُبحث عنه ضمن الوظيفة الرمزية، ولكن في مختلف المظاهر الأخرى التي هي محل الدراسة والبحث حالياً، والمتعلقة بالجوانب البراغماتية للغة مثل :البكاء، الضحك، الحركات، الأصوات والإيماءات التي تجعل من الطفل ابتداءا من الشهور الأولى كائناً يتواصل مع الآخرين (Moreau M.L, et Richelle M., 1997: 176).

3- يعتقد بياجي أن اللغة لا تُنتِج الإجراءات أو العمليات، بل على العكس من ذلك، فإن هذه الأخيرة هي التي تسمح باستغلال واستثمار اللغة بكل إمكانياتها التمييزية.كما يعتبر بياجي أن اللغة ليست عنصراً ضرورياً لتكوين المنطق، وأن العمليات العقلية تنتظم وتعمل بشكل مختلف عن الذي ستعمل به إذا أخذت شكلاًلغوياً.

ففيما يخص الإجراءات أو العمليات العقلية العيانية، فهي أفعال بحتة قبل أن تكون "إجراءات تفكير"، وينفذها الطفل على المستوى الإدراكي

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

وعن طريق التحريك والمعالجة قبل أن يصيغها على المستوى اللفظي، بالتالي لا يمكن أن تكون اللغة هي سبب تكوينها (أوليرون، ب، 279-278:2005).

4- يرى بياجي خلال مرحلة الإجراءات الفرضية الاستنتاجية نوعاً من الخضوع للجانب العقلي إلى الجانب اللغويولكن يضع لذلك قيدين:

- أولاً، بما أن هذه الإجراءات متعلقة باقتراحات وليس بأشياء مادية، فهي تحتاج إلى لغة تعبر فيها عن هذه الاقتراحاتولا تعني اللغة هنا بالضرورة لساناً، إذ تُستخدم اللغة المستعملة في الرياضيات، وفي المنطق بشكل فعال كأداة لبناء هذه العمليات.

-ثانيا، إذا كانت اللغة ضرورية من أجل منطق الاقتراحات، فهي لا تنتجها إن صح التعبير، لأنه حسب بياجي، لاتوجد عملية أو إجراء إلا ما امتدت جذوره في فعل المفحوص، أي أن كل الأعمال والإجراءات تجد مصدرها في فعل المفحوص. (Moreau, M.L. et Richelle, M., 1997 : 176)ويخلص بياجي إلى أن اللغة يمكن أن تكون شرطاً ضرورياً لإنهاء العمليات المنطقية الرياضية، ولكن دون أن تشكل بذلك شرطاً كافياً لتكوينها .(Mottet, G., 1975- 1976 : 53)

وقد وجهت انتقادات عديدة لبياجي تعلق أهمها بكونه لم يتبع بنفسه وبالتدقيق تطور البنيات اللغوية لدى الطفل، ولم يهتم أبداً بتكوين خليقة اللغة من أجل نفسها.فهو لم يتطرق في بحوثه حول اللغة الأنوية لبعض جوانب اللغة، إلا باعتبارها انعكاسا لبعض خصوصيات التفكير عند

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

الطفلويمثل كتابه حول تكوين الرمز عند الطفل أطروحة للدفاع عن فكرة خضوع اللغة للوظيفة الرمزية.

إذن، كان اهتمام بياجي قبل كل شيء بالنمو المعرفيوليس باكتساب اللغة..(Moreau, M.L, et Richelle, M., 1997 : 181- 182)

كما يشير باحثون ينتمون إلى مدرسة جنيف، من بينهمسنكلير (1974) Sinclair أنه من الصعب في الوقت الراهن وضع تقابل بين النظامين المعرفي واللغوي، وأحد الأسباب الأساسية لذلك هو غياب نموذج مسلم به للنمو اللغويتحت تصرف الباحثين، كما هو الحال بالنسبة للنمو المعرفي الذي يتوفر على نموذج متناسق تم اعتماده عن طريق الأحداث.كما لا توجد تحت تصرف الباحثين نظرية عامة للنمو اللغوي ولا اختبارات أو مقاييس نموذجية تسمح بالكشف عن مختلف مستويات الاكتساب اللغوي (Sinclair, dans: Tourette, G., 1980: 173).

تصور فيكوتسكي(1896-1934) Vygotsky

يعرف فيكوتسكي اللغة كأداة تواصل ذات الامتياز الكبير، وهي حاملة المكتسبات الثقافية لمجتمع ما، أما الفكر فهو ثمرة أو نتيجة الاستبطان المتدرج لهذه الأداة، بذلك يمثل التفكير نقطة التقاء الجذور التواصلية والفهمية للنمو .(Bronckart J.P., 1975:138)

ويصادر فيكوتسكي على أن الرباط بين الفكر واللغة ليس ذا طبيعة بدائية وغير متغيرة بل يتواجد مصدرها في النموويتغير هذا الرباط

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

ويصبح أكثر فأكثر وثوقاً خلال هذا النمو.وحسب هذا التصور، فإن اللغة ليست لباساً داخلياً للفكر، بل إنها تحقق له *"توجيهاً تصنيفياً"* بحيث أن*"الفكر لا يعبر عنه بالكلمة بل يتحقق في الكلمة"*.

ويوضح فيكوتسكي أن اللغة ليست مجرد انعكاس للفكر، كما قد يظهر على مرآة، وهي بذلك لا يمكنها أن تلبس الفكر كما لو كان فستانا مصنوعا وتخدم بذلك فكراً جاهزاً، بل أنه عندما يتحول الفكر إلى لغة، فإنه ينتظم من جديد ويتغير (Vygotsky 1934/ 1985 , dans: Rivière,A.,1990:126 - 127).

ويعتبر فيكوتسكي أن المفاتيح ذات الطابع اللغوي هي ذات أهمية كبيرة في تنظيم وتنسيق الفعل ومختلف الوظائف المعرفية.ويتم اكتساب هذه المفاتيح خلال النمو، حيث يتم استيعاب الرموز اللغوية مع النشاط العملي والأدائي للطفلويشكل بذلك هذا الاكتساب، حسب فيكوتسكي، خطوة أولى ذات أهمية قصوى في التحول النوعي والجدلي للنشاط الإنساني حيث يشرح الباحث أن اللغة والعمل يسيران في البداية في خطين مستقلين تماماً.وعندما يحدث تقارب بينهما ويلتقي الواحد بالآخر، يكوّن هذا الحدث اللحظة الأكثر أهمية في النمو الفكري إذ نلاحظ بروز الأشكال الإنسانية البحتة للذكاء العملي المجرد.

ويشير الباحثأيضاً إلى أن الطفل يكتسب أنظمة وظيفية وكيفيات تنظيم سلوكية جديدة خلال التبادلات مع العالم الخارجي، ويحدث ذلك بوساطة من اللغة .ويتبع هذا الاكتساب ثلاث مراحل أساسية: في

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

المرحلة الأولى تمثل اللغة كيفية تواصل مع الراشدين، فهي تكون خارجية في شكلها وفي وظيفتها، ثم في مرحلة ثانية، ومع احتفاظها بشكلها الخارجي، فهي تكتسب وظيفة داخلية أي أنوية، ثم في الأخير تتحول هذه اللغة إلى لغة داخلية وتصبح فكراً .وعليه فإن هذا التصور يفترض أن تكون اللغة هي المسيّر والضابط للسلوك الإنساني (Bronckart, J.P., 1975: 144).

وتعتبر هذه المسألة المتعلقة بنمو اللغة إحدى نقاط الخلاف الحادة بين بياجي وفيكوتسكي.فبينما يرى بياجي أن اللغة الأنوية هي انعكاس للفكر الأنوي لتتطور فيما بعد نحو فكر ولغة مجتمعين، فإنه بالنسبة لفيكوتسكي، تكون اللغة في استعمالاتها منذ البداية للتواصل مع الآخرين، ثم تصبح فيما بعد وسيلة تواصل مع الشخص نفسه أي تصبح لغة مستبطنة .

وتمثل اللغة الأنوية مرحلة وسطية بين اللغة الاجتماعية واللغة المستبطنة (لغة اجتماعية لغة – أنوية – لغة داخلية) (Moreau M.L. et Richelle M., 1997: 216 - 217).

وقام فيكوتسكي بتحليل اللغة الأنوية ودرس نموهاووظيفتها باستعمال طريقة تجريبية اكلينكية، اعتمد فيها على تنظيم نشاطات يقوم بها الطفل مثلما فعل بياجي من قبله، ولكن بإدخال مجموعة من الصعوبات قصد ملاحظة ردود فعل الطفل.وقد كشفت هذه الدراسات أن معامل اللغة

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

الأنوية عند الأطفال، والذي يتم قياسه خلال الحالات التي أدرجت فيها الصعوبات، يصبح ضعف المعامل الذي تم قياسه عند نفس الأطفال خلال الحالات أو الوضعيات التي لا تحتوي على صعوبات (Vygotsky, L., 1997: 95 - 96).

ويخلصفيكوتسكي بعد هذه الدراسات إلى أن اللغة الأنوية لا ترافق فقط العمل، أو النشاط الذي يقوم به الطفل، فهي ليست مجرد تعليق بل هي شكل حقيقي للاستدلال، حيث أن إنتاج لغة أنوية حيثما تواجدت صعوبة يشهد على أن الطفل يعي هذه الصعوبة وأن اللغة الأنوية تسمح له بعد ذلك بالتوجه عقلياً، بالتأمل والتبصر كي يجد حلاً لتلك الصعوبة (Laval, V., 2004: 50 - 51).

وبخصوص العلاقة بين الفكر واللغة، يقرر فيكوتسكي بأن هذه العلاقة يتغير معناها نوعاً وكماً خلال النمو، فاللغة والفكر لا يتطوران بشكل متوازٍ أو متساوٍ.فخلال فترات عديدة يلتقي منحنيي نموهما، وفي مراحل أخرى يسيران معاً ويتبعان مشواراً متوازياً وقد يختلطان لبعض الوقت ثم يتشعبان من جديد .(Vygotsky, L., 1997: 149)

ويعتقدالباحث أن للغة والفكر جذوراً جينيتيكية مختلفة تماماً، ذلك ما أوضحته مختلف الدراسات التي أجريت في ميدان علم نفس الحيوانات، أهمها تلك التي قام بها الباحث كوهلر Kohler والتي خصت القردة، والذي خلص من خلالها إلى أنه يظهر عند الحيوان بداية من الذكاء أي من الفكر باستقلال عن نمو اللغة، ودون أية علاقة مع تطورها.وأهم ما

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

يخلص إليه الباحث كوهلر Kohler بعد تجاربه هو أن قردة الشامبانزي تملك عناصر أصولية من السلوك الذكي من نفس الطبيعة والنوع مع سلوك الإنسان، لكن غياب اللغة ونقص التمثيل، هما السببان الرئيسيان للفرق الكبير بين القردة الشبيهة بالإنسان، وبين الإنسان البدائي.(VygotskyL., 1997 : 150)إلا أن هذه الدراسات قد تلقت انتقادات عديدة شككت في مصداقيتها.

ويمكن أن نخلص بعد هذا التقديم الموجز لبعض أفكار فيكوتسكي إلى أن الباحث يركز على أهمية اللغة في الفكر وعلى العلاقة الوطيدة التي بينهما.وإن كان بياجي قد قلّل من أهمية اللغة بعد تحليله للغة الأنوية، فعلى العكس من ذلك، يكون تحليل هذه اللغة الأنوية هو الذي قاد فيكوتسكي إلى استخراج أهمية اللغة في الفكر، حيث يعتبر هذا الباحث اللغة الأنوية، خصوصاً في مراحلها الأخيرة، مادة ممتازة لملاحظة وتحليل بنية الفكر اللفظي.أما اللغة الداخلية فهي في جزئها الأكبر تفكير يحمل معاني خالصة وهي لغة نشطة وغير مستقرة وتتأرجح بين اللسان والفكر (Rivière, A., 1990: 133)

كما أن دراسات فيكوتسكي وأفكاره لم تكتشف إلا بعد سنوات عديدة من وفاته، وقد أثّرت هذه الأفكار والدراسات بعد اكتشافها في العديد من البحوث التي تناولت العلاقة بين الفكر واللغة في إطار عام أو بين الازدواجية والنمو المعرفي كإطار خاص.ومن الباحثين الذين استفادوا من دراسات بياجي وفيكوتسكي، نجد الباحث الأمريكي ب

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

رونرBruner الذي تقترب أفكاره أكثر من أفكار ووجهات نظر الباحث فيكوتسكي.

تصو ربرونر:Bruner (1915-2016)

يميز الباحث برونر بين ثلاثة مستويات في النمو النفسي للطفل، فيعتبر المستوى الأول استمراراً للفعل الحركي حيث يرتكز فقط على اكتساب الأجوبة الحركية التي يمكن إعادة إنتاجها من طرف المفحوص، حتى في غياب المنبهات التي كانت حاضرة خلال تعلمها.ويرتبط العديد من تعلّماتنا الحركية المعقدة بهذا التمثيل الذي يطلق عليه برونر اسم التمثيل الساكن أو غير النشط.وأمثلة هذا النوع من التعليم كثيرة، فحسب الباحث لا نحتاج إلى مخطط أو إلى وصف لغوي لكي نتمثل الطريقة التي نستطيع بها أن نسبح أو نقود دراجة من دون سقوط للاحتفاظ بتوازننا عند قيادة الدراجة.

أما المستوى الثاني، فيعتبر استمراراً للتنظيم الإدراكي مع تكثيف المعطيات الحسية ضمن صور، دون الاستعانة بالفعل، إذ يتعلق الأمر هنا بالتمثيل بالصور.وبعض أمثلة ذلك :الصور الذهنية، الخرائط، المخططات، والرسومات البيانية.

وأخيراً، المستوى الثالث وهو مستوى التمثيل الرمزي الذي يتطلب اللغة في معناها الواسع أي اللسان، ولكن كذلك اللغة الرياضية أو المنطقية، الأساطير، النظريات والشروح المقدمة للطفل من طرف

محيطه الاجتماعي. ومن هنا يكون هذا المستوى تابعا مباشرة لثقافة هذا الوسط الاجتماعي.

ويوضح الباحث أن الطفل يبلغ هذه المستويات الواحد بعد الآخر، لكن دون التخلّي عن الأشكال السابقة للتمثيل، حيث نلاحظ وجود الأشكال الأولى للتمثيل لدى الراشد، إضافة إلى التمثيل الرمزي.كما يشير الباحث إلى أنه حينما يتدخل التمثيل الرمزي، فلا وجود لنمو معرفي منفصل عن اللغة، ونتيجة ذلك لا يمكن ارتقاب تطور فردي مستقل عن كيفيات التأثير التي يمارسها المحيط الثقافي.

وخلاصة هذا التحليل الموجز، هي أن اللغة في تصور برونر تمثل عنصراً أساسياً تكوينياً في النمو المعرفي ابتداءً من اللحظة التي يصبح فيها المستوى الرمزي وظيفياً، أي أن اللغة تبدأ في أداء دور هام في التفكير عندما يتوصل الطفل إلى مستوى التمثيل الرمزي. وتتمثل خصوصية هذا التصور في عدم عزل اكتساب اللغة عن باقي جوانب النمو المعرفي، كما أنه يعيد إدماج هذا النمو في إطار الظاهرة الثقافية التي تمثل اللغة جزءاً هاماً داخلها. ويؤكد هذا التصور أيضاً بالخصوص على وجود ترابط أو تبعية بين النمو المعرفي والنمو اللغوي (Moreau, M, L. et Richelle, M., 1997: 190 - 194).

وتشير البحوث الحديثة إلى أن التفاعلات بين المعرفة واللغة معقدة جداً وتقترح مجموعة من الفرضيات لشرح ذلك.

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

نجد في هذا الإطار جوهنستونJohnston (1985) الذي يدعم فرضيتين فيما يخص العلاقات بين اللغة والمعرفة، إذ تؤكد الفرضية الأولى على أن النمو التصوري يشكل مطلباً قبلياً للنمو الدلالي.والفرضية الثانية تقول إن البنيات المعرفية المجردة تشكل المطلب القبلي للبنيات اللغوية المقابلة لها خصوصاً البنيات التركيبية.

ويقترح قوبنيكGopnik (2000) نظرية تقول بضرورة التفكير في علاقة بين المعرفة اللغوية والمعرفة غير اللغوية، بأنها شبيهة بالعلاقة بين مختلف ميادين المعرفة في العلوم.كما توصلت بحوث كل من قوبنيك و مالزوفMeltzoff Gopnikإلى فكرة وجود علاقة مزدوجة الاتجاه بين اللغة والمعرفة. (Kail, M. dans : Kail, M, Fayol, M. et al., 2003 : 16 - 17)

الخاتمة:

يتبين من خلال هذا التحليل الموجز مدى صعوبة الإجابة عن التساؤل المطروح حول العلاقة بين اللغة والفكر حيث لم تتفق كل الدراسات على وجهة نظر موحدة. لكن مع ذلك يمكن أن نخرج بخلاصة عامة تؤكد أن للغة علاقة متينة بالفكر،إلا أن بعض الباحثين يرون لجانب الفكر أو للنمو المعرفي الدور الأهم في هذه العلاقة. وهنا نجد تصور بياجي الذي يقلل نوعاً ما من دور اللغة في الفكر،وبالخصوص في نمو الذكاء،بينما يرى باحثون آخرون مثل فيكوتسكي و برونر أن للغة

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

الدور الأول في هذه العلاقة ولا يمكن للنمو المعرفي أن يتطور من غير اللغة التي تمثل العامل والمسير الأساسي لهذا النمو.

المراجع:

أوليرون، ب. (2005). **اللغة والنمو العقلي**. ترجمة محمود براهيم. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- Bronckart, J.P. (1975). Acquisition du langage et développement cognitif. La genèse de la parole.16eme Symposium de l'Association de Psychologie Scientifique de Langue Française.
-Bronckart, J.P. (1977). Théories du langage. Une introduction critique (4eme édition). Liège Pierre : Mardaga.
-Cordier, F. (1994). Représentation cognitive et langage : une conquête progressive. Paris : Armand Colin.
- Kail, M., Fayol M. et al. (2003). L'acquisition du langage. Le langage en émergence. De la naissance à 3ans (2me édition). Paris : PUF.
- Laval, V. (2004). La psychologie du développement. Modèles et méthodes.Paris : Armand Colin.
-Moreau, M.L. et Richelle M. (1997). L'acquisition du langage (5eme Edition). Liège : Pierre Mardaga.
-Mottet, G. (1975-1976). "Les rapports du langage et du développement cognitif dans l'œuvre de Piaget". Bulletin de psychologie, tome XXIX, (320), 36-43.
-Piaget, J.et Inhaler, B. (1993). La psychologie de l'enfant. Alger :Edition Bouchene.
- Siegler, R. (2001). Enfant et raisonnement. Le développement cognitif de l'enfant, traduction de B. Bourdin et C. Martinot. Bruxelles : Edition De Boeck.

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة
bouzidbaasaliha@gmail.com

-Rivière, A. (1999). La psychologie de Vygotsky, traduit de l'espagnol par C. More et C. Rodriguez, Liège : Edition Pierre Mardaga.

-Tabouret-Keller, A. (2000).Questions de psychanalyse et psychologie du langage.La maison du langage II, Série Langages et Cultures, Montpellier III : Presses de l'Université de Paul –Valery.

- Tourette, G. (1980). "Compétence cognitive et performance linguistique". Bulletin de psychologie, tome XXXIV, (348), 167-174.

-Vygotsky, L. (1997). Pensée et langage, traduction de F. Sève. Paris : La dispute.

الناصرية

الناصرية

المؤلف المراسل: بوزيد باعه صليحة

bouzidbaasaliha@gmail.com